شهادات «صوت فلسطين»

- باسم أبو سمية
- يوسف القزّاز
- يوسف المحمود

ليلة القصف على صوت فلسطين
دوام الحال في محطة الإرسال

باسم أبو سمية*

يوم الثلاثاء، قبل عشرة أيام من ليلة القصف الإسرائيلي لمُرسلات الإذاعة في الشارع المسمى منذ زمن بعيد بشارع الإرسال، على الخط الوهمي الفاصل بين المدينتين التوأمين رام الله والبيرة، تداعينا إلى اجتماع طارئ، في مكتب رئيس هيئة الإذاعة والتلفزيون رضوان أبو عيّاش، كنّا جميعاً، أنا، ويوسف القزاز ومحمود أبو الهيجاء، وزعل أبو رقطي، وعلي ريان، وناقشنا معاً ما الذي علينا أن نفعله؟ ووضعنا على الورق خطتنا البديلة لاستئناف البث الإذاعي بعد القصف الإسرائيلي الذي لا بدّ من وقوعه!

فطوال الشهر السابق للعدوان، امتلأت الصحف ووسائل الإعلام العبرية، بتهديدات المسؤولين العسكريين والقادة السياسيين، ابتداء من رئيس الحكومة الإسرائيلية إيهود باراك، مروراً بوزير الخارجية شلومو بن عامي، ورئيس الأركان شاؤول موفاز، وانتهاء بضباط كبار وصغار، وحتى الجنود على الحواجز، والمستوطنين، وليس صدفة، انضم إلى هؤلاء «زملاء» المهنة من صحافيين إسرائيليين في الحملة المطالبة بإسكات الإذاعة التي باتت «مدرسة للتحريض» ضد إسرائيل، هذه العبارة حوّلت اجتماعنا الطارئ إلى جلسة ساخرة ناقشنا فيها سيناريو البحث عن وظيفة لرئيس الحكومة الإسرائيلية أو لوزير خارجيته لقيادة الأخبار والبرامج في صوت فلسطين، كي لا يكون هناك تحريض بعد اليوم. ولاقى اقتراح التوظيف «استخشانا» بين ناشطي التحريض منا، لكننا لم نجد حلاً لكيفية وصول باراك وبن عامي إلى الإذاعة لتقديم طلب التوظيف.

في الحقيقة، لم نكن نملك، ولا نزال، بدائل لاستئناف البث بعد القصف، فليست لدينا سيارة نقل إذاعي، ولا إذاعة متنقلة، ولا قبو أسفل الإذاعة ولا مرسلات بديلة، ولا قطع غيار أو معدات مثلما كان الحال في بيروت أثناء الغزو الإسرائيلي عام اثنين وثمانين، وطالما حدّثنا يوسف عن مطاردة الطائرات الإسرائيلية

لصوت فلسطين من قبو إلى قبو ومن حي لآخر، لقد كنا، ومنذ انطلاق الإذاعة عام أربعة وتسعين، مكشوفين إلى حدّ فجّر فينا طاقة كبرى من التحدي، وليكن.. سنواصل البث بأية طريقة كانت، معتمدين على موجات المحطات الخاصة، وهذا ما حصل، عرضنا الفكرة على أصحاب الإذاعات المحلية، فوافق البعض دون تردد، وتردد البعض الآخر دون موافقة، متذرّعين باستقلال شخصيتهم الإذاعية وجمهور مستمعيهم، فيما بعض الاحتمالات مفتوحة على معركة لا تستهدف ضرب التنافس الإذاعي، بل الخطاب الإعلامي الفلسطيني برمّته!

صبيحة يوم الخميس، الثاني عشر من تشرين أول.. كانت بداية عادية ليوم جديد من أيام الانتفاضة، أفاقت الشمس كعادتها قبل الناس متثائبة بعد ليل ثقيل من المواجهات في كل مكان، وأطلت على البشر من بين سحب دخان الإطارات المحترقة وقنابل الغاز.. كانت رام الله والبيرة تمسحان عن وجهيهما ما علق من الندى المعبأ بالغاز الخانق.

على غير عادتهما، اتصل يوسف ومحمود مبكراً، وقالا: علينا أن نلتقي في التاسعة، أكملت ارتداء ملابسي وفنجان القهوة وهرولت مسرعاً، وفي الطريق إلى الإذاعة، اتجهت إلى ميدان المنارة لإلقاء نظرة على الأحوال هناك، كان مكتظاً بالناس المتسوّقين والسيارات، والشبان وصور الشهداء، وعلى حوافّ الشوارع ومفارق الطرق، انتشر أفراد الأمن الوطني بزيّهم العسكري وما تيسر لهم من أسلحة شخصية، وفي شارع الـ«سيتي إن»، حجارة ومتاريس وخراطيش رصاص، وبقايا قنابل الغاز وبقع الدم الشاهدة على آثار مواجهة دامية.

فتحت الراديو، كان سمير يقدم برنامج الفترة الإخبارية الصباحية، وسمعت محمود يجري حواراً مع أبو مازن، قال ضمن ما قاله: من الواضح أن إسرائيل لا تريد السلام، قلت بصوت مسموع، هو كذلك بالفعل، فمنذ أسبوعين وجنودها يقومون يومياً بحصد أرواح الأطفال والشبان حصداً بالرصاص في الرأس والقلب، في الأماكن الأشد قتلاً، وحتى اليوم، سقط خمسون شهيداً على الأقل.. إنه عدد هائل.

في برنامج ذلك اليوم، شرح المراسلون بالتفاصيل ما يجري، كلهم متهيئون ونشيطون بتفاوت يتيح للمستمع إدراكه، وتحدثوا عن مشاهداتهم وعما رواه شهود العيان وأهالي الشهداء والجرحى، أو ما قاله المسؤولون، لم يبحثوا عن السبق الصحفي بقدر ما كانوا ينقلون تفاصيل ما يحدث ميدانياً، نقلوا بالصوت، الصورة كما هي، وأحياناً عبّر بعضهم عن غضبه بنبرة قتالية وخاصة أبو صالح مراسل الإذاعة في الخليل، الذي يتهمه الإسرائيليون بأنه يعمل من الحبّة قبّة، وهو بالنسبة إلينا لا يبالغ، لكنه يستخدم عبارات تعكس تأثره من اعتداءات لا تطاق للجنود وللمستوطنين في الخليل، وتلاه خليل من نابلس بصوت هامس ربما من البيت كمن يذيع سرّاً، ثم نعيم من قلقيلية مردداً المقدمة ذاتها، وأنفاسه تعلو وتهبط من آثار ليلة مفعمة بالسجائر، ويأتي معين من طولكرم يتردد صدى صوته في داخل الغرفة بصورة توحي ببعده عن الميدان.. ثم محمد عبد ربه من العاصمة القدس يقول أشياء كثيرة مليئة بالمعلومات والوقائع التي تحتاج إلى ترتيب في بعض الأحيان.. ويلهث رشيد على الهواء وهو يركض وراء المشيّعين أو على مقربة من المواجهات في منطقة »سيتي إن« بالبيرة.. ويبدو ناصر وكأنه يبعد الرصاص عن رأسه أو كمن يلاحق الأحداث من مكان لآخر في محافظة جنين..

وقبل كل هؤلاء، كما هي العادة، يطلّ علينا من غزة عادل، المدلل لدى الرئاسة في المنتدى، والذي نجا مرتين من الرصاص والقصف وهو يلاحق الأحداث في نتساريم والقرارة، ونقل ما قاله أو فعله الرئيس في ذلك اليوم، وما استجد من قتل إسرائيلي في مفترق الشهداء عند مستوطنة نتساريم، حيث قتل قبل أيام الطفل محمد الدرة بدم بارد، إلى حدّ التجمد، من أريحا، المدينة الوادعة وغير الهادئة، فإن مندوبنا هناك فتحي يبدو في معظم حالاته كمن يلعن اليوم الذي عمل فيه مراسلاً، فساعة أخرى من النوم في الصباح الباكر، أكثر فائدة له من رائحة الغاز المسيل للدموع، ومن بيت لحم، يجيء صوت سعيد معتدّاً بنفسه مُعبّأ بالأخبار، يقدم شرحاً وافياً عن المواجهات العنيفة عند مسجد بلال بن رباح الذي استولت عليه إسرائيل قبل سنوات وسمته قبر راحيل.. وتنتهي الجولة الإخبارية.. وتنطلق الأغنيات الوطنية والتراثية التي ترى فيها إسرائيل تحريضاً ودعوة للعنف.

وقبل الذهاب إلى الإذاعة، توجهت إلى محطة الإرسال، كان محمد والشباب جميعاً يمسحون النوم عن عيونهم، قالوا إن كل شيء على ما يرام، ولكن.. ماذا حصل لأجهزة الإرسال الجديدة؟؟ قلت: الموضوع لا يزال معلقاً منذ ثلاث سنوات بانتظار الفرج المالي، شربنا القهوة معاً، وقلت لهم ديروا بالكم، فإسرائيل تهدد بضربنا منذ زمن طويل، ومن الممكن أن تفعلها في أية لحظة، ولم أكن أعلم أن «أم كامل» (كما اصطلح على تسميتها) الطائرة الاستطلاعية التي حلّقت صباحاً في سماء رام الله، حددت الأهداف المرشحة للقصف، ومنها مرسلات الإذاعة.

عندما وصلت المكتب في التاسعة صباحاً، جاء يوسف ومحمود مهمومين، تناولنا القهوة مرة أخرى، وأشعلنا السجائر وطالعنا الصحف، ودقّ جرس الهاتف.. هناك أمر غير عادي يحدث بالقرب من مركز الشرطة في البيرة، مئات الشبان الغاضبين يهتفون، هناك من يقول إن ثلاثة جنود إسرائيليين أو أربعة، تسللوا إلى المدينة ووصلوا على مقربة من مركز الشرطة، وكان هناك آلاف المتظاهرين يتهيأون لتشييع جنازات شهداء سقطوا أمس برصاص الاحتلال.

يقولون إن الشرطة أوقفت مسلحين بملابس نصفها العلوي مدني والسفلي عسكري، وبحوزتهم أسلحة ومتفجرات، كانوا يعتزمون ارتكاب مذبحة، ولاحظ الجمهور الغاضب ذلك، فثارت الجموع وتدفق الشبان إلى مركز الشرطة كالسيل العارم، ومات الجنديان وسط الزحام.

كنت واقفاً أمام النافذة أستمع إلى التفاصيل وعيناي إلى ساحة الهيئة، طلبت من هشام رسالة إخبارية من الموقع، وقال على الهواء، بصوت لاهث يعكس سخونة الحدث، كل ما شاهد وسمع، ومن خلفه تعالت هتافات غاضبة.. وفي الساحة أمام مقر الهيئة، شاهدت موظفين يركضون إلى خارج المبنى خوفاً من قصف إسرائيلي، وسيطر علينا شعور مبهم، ما الذي سيحدث، قال رضوان بعد أن وصلنا إلى مكتبه في الدور الخامس لاهثين من أثر الصعود: علينا الاستعداد لمواجهة كل الاحتمالات، قال يوسف: بالطبع سيضربون الإذاعة، قلت: نعم سيضربون محطة الإرسال وطلبت من الشباب هناك الانتباه، وقال محمود: بالتأكيد، فالهدف هو إسكات الإذاعة المحرِّضة..! سألني رضوان: هل أنتم جاهزون..؟ أجبت: بالتأكيد كل شيء على ما يرام، لا تخف! سيستمر صوت فلسطين مهما حدث، وكان رئيس الهيئة يعلم أننا اتفقنا منذ عشرة أيام بحضور المحافظ أبو فراس، مع إذاعتي «أجيال» و«أمواج» على نقل بث إذاعة صوت

فلسطين في حال تعرضه للقصف، وأبقينا أمر الاتفاق طيّ الكتمان.
في ظهر اليوم ذاته، دوّت انفجارات لم نحددها، وبعد لحظات، جاءنا نبأ قيام الطائرات الإسرائيلية بقصف مركز الشرطة والمقاطعة ومحطة الإرسال الإذاعي، أسرعت أنا ومحمود إلى المواقع، وفي الطريق، اتصلنا بالمحطة وأفادنا الشبان بأن القصف لم يصل بعد إلى المحطة، فعلّق محمود ساخراً: الآن سيقصف الإسرائيليون، فقد أذعنا النبأ قبل وقوعه، عدنا من منتصف الطريق إلى مركز الشرطة، كان متهدما تماماً، وحوله تجمّع آلافُ الناس يهتفون ضد الاحتلال، ومراسلون صحافيون ومصوّرون، ومن هناك، هاتف محمود الإذاعة ونقل على الهواء ما جرى لمركز الشرطة، وعدنا إلى المكتب ومعنا صالح مشارقة الذي التحق لتوه بالإذاعة متطوعاً، ودخل محمود الاستوديو يطلب من الناس الهدوء وعدم الارتباك ومواجهة الموقف بصلابة.
وكان رضوان وصالح وعيسى عبد الحفيظ ويوسف وأنا في قاعة التحرير نكتب منطلقات في نفس الاتجاه لإذاعتها، وبعد خمس دقائق، توقف البث، فعلتها إسرائيل وقصفت برج الإرسال! وانطلقنا مسرعين أنا ومحمود وصالح يقودنا أبو مراد إلى الإرسال، فهناك كان فكري ومحمد وجميع الشباب يحاولون إطفاء الحرائق بأيديهم، وقفنا إلى جانبهم إلى أن جاءت إطفائية الدفاع المدني وإسعاف الهلال الأحمر، واعتقدنا أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد، وعندما هممنا بالعودة إلى الإذاعة، سمعنا هدير الطائرات آتية من الغرب، وقفت إحداها في السماء في وضع التصويب، ورأينا خيوطاً من اللهب الأحمر تنطلق من فم الطائرة فوق رؤوسنا إلى قاعدة برج الإرسال مباشرة في المكان الذي كان يقف فيه المهندسون، ودوت انفجارات هائلة، وصاح الناس: الشباب راحوا، وصرخ محمود وصالح وأنا معاً: يا الله.. مات الشباب! ودوت انفجارات أخرى في الموقع نفسه.. وارتدت الطائرات لتقصف مقر الشرطة في ضاحية الطيرة ومساكن في حيّ بطن الهوا، وعدنا جميعاً إلى الإرسال، سبعة صواريخ سقطت هناك ودمرت غرفة التغذية تماماً، وقاعدة البرج وأرجله، ونظام الإنارة وخط البث الموجه إلى المناطق الشمالية من الوطن.
وعلى مقربة من المقاطعة، رأينا «العميد» عايد عمرو، مستنفراً بكامل بزته العسكرية، لوّح لنا بيديه من بعيد وكأنه يشتم القصف اللعين!
وعدنا مسرعين إلى الإذاعة بعد أن تأكدنا من سلامة الجميع، «في المال ولا في العيال»، ومن هناك، حملنا ما استطعنا من الأغاني الوطنية والموسيقى إلى راديو «أجيال» وسبقنا إلى هناك خالد سكر الذي طلب منه محمود أن يقول: هنا صوت فلسطين، حال وصوله استوديو أجيال، وهكذا فعل، وجاء جمال وفكري وريم وسماح ووليد وهشام وأبو حسام وأمجد ومحمد علي وآخرون، صعدنا الدرج بين حبات الظلام الدامس، كان سمير وعبد العزيز ووليد في استقبالنا على الباب، رحبوا بنا مهنئين بالسلامة، وأسرع محمود ويوسف وزعل إلى الاستوديو، وجلست أنا ورضوان في أحد المكاتب إلى جانب الهاتف، اتصلنا بالطيب عبد الرحيم أمين عام الرئاسة وتحدّث على الهواء مطمئناً ومؤكداً أن العدوان الإسرائيلي لن يهز إرادة الشعب، ونقل إلى الجماهير تحيات الرئيس، ووقوفه مع الإذاعة في مواجهة الاعتداء، والتحقت بالباقين في الاستوديو لنرد على القصف الصاروخي الإسرائيلي بالقول إن الكلمة الشجاعة

والأمينة أقوى من شواظ النار.. وفي المساء، اتصل إبراهيم ملحم من الفضائية وكان معه نبيل عمرو، وسألا عن الأحوال، ومتى سيعود الإرسال، فأجبته، لقد عاد بعد خمس دقائق من القصف!
في الليل، جاء الوزير ياسر عبد ربه، والحاج إسماعيل، وتوفيق الطيراوي، وأبو نزار، والمحافظ أبو فراس، ومساعده صائب نصار أكثر المتعصبين للإذاعة، وجاء مسؤولون ومواطنون وزملاء وضعوا أنفسهم بتصرف الإذاعة، وحضر أسامة مسؤول الأمن ومعه اثنان أو ثلاثة من أمن الرئاسة لحراسة موقع البث الجديد، وانهالت الاتصالات من الناس والأصدقاء والأهل من الداخل والخارج، ولم يتوقف رنين الهواتف لحظة واحدة، اتصالات للتهنئة بالسلامة وعودة البث، ومراسلون عرب وأجانب يسألون ويريدون ردة الفعل على ما حدث.
تحدثنا إليهم بسخرية كبيرة، لقد قصفت إسرائيل الإذاعة لأننا نكشف حقيقة ما يفعل جنودها ومستوطنوها ضد الأهالي، وضدنا، وليفرح باراك وغيره من المسؤولين، فقد نجحوا في إصابة الهدف بدقة كما خططوا له، وأمام مقر الإذاعة في حي أم الشرايط، تجمع مئات الأهالي تضامنا معنا، وعادت برامجنا كما كانت قبل القصف، نشرات الأخبار كل ساعة، ورسائل المراسلين من المحافظات، والأغنيات ذاتها التي أثارت غضب الصواريخ، وعاد أبو صالح يردد العبارة المحببة إليه: «قطعان المستوطنين»، وعاد يوسف إلى برنامجه الصباحي، وفي الليل، أطلّ المتوكل طه، كعادته كل ليلة، بقامته الهائلة وعانقنا واحداً واحداً، وطفق يكتب الشعر والنثر عن القصف والانتفاضة والصمود وأشياء أخرى، وجاء حافظ البرغوثي يمطرنا بتعليقاته الساخرة مثل «باراك وراك والزمن طويل»!..
في يوم القصف، قبل وقوعه بدقائق، وتجنبا لخسائر في أرواح العاملين في الأخبار والبرامج والاستوديوهات، اتفقنا على تقليص العدد إلى أقل ما يمكن، لكن الجميع رفضوا المغادرة، وأصروا على مواصلة العمل كالمعتاد، رغم قناعتهم بأن إسرائيل لن تتورع هذه المرة عن قصف مبنى الإذاعة، رفضت سماح، العصفورة الجامحة، الخروج، ورأيت جمان، مذيعة الفرنسية، تحرر الأخبار بكل اللغات المتاحة، وخالد القاسم يوزع تعليقاته الساخرة، وجميل مستنفر كمن يستعد للقتال، والدسوقي وعصام مذهولان، وفي غرفة التحرير، وقف عماد هادئاً مبتسماً كعادته وحوله جمع من المحررين والمذيعين، ويتلقى اتصالات محمد السيد من داخل الخط الأخضر عما يقول الإسرائيليون عنّا، وعلى غير العادة، التحق من كانوا خارج المبنى بالعمل، وتحوّلت الإذاعة حتى آخر الليل إلى خليّة نحل، الموظفون الزملاء المتطوعون والمتضامنون والصحافيون ومراسلو التلفزات والإذاعات ما عدا «زملاء» المهنة الإسرائيليين، الذين كانوا يطاردوننا يومياً بأسئلتهم الاستخبارية عن الانتفاضة، ولما حلّ القصف، توقف الإرسال الإذاعي واتصالات الصحافيين الإسرائيليين في آن، وكأن ذلك كان كلمة السرِّ!!
في اليوم التالي، اتصل عدنان استيتية وغلاديس منصور، مسؤولا إذاعة أمواج، ووضعا جميع إمكانيات الإذاعة بتصرف صوت فلسطين، وهكذا فعل سمير قمصية رئيس اتحاد المحطات الخاصة، ومن شيكاغو، اتصلت إذاعة صوت الحلم العربي المسموعة في عدة ولايات أمريكية وطلبت ربط إذاعتها معنا، وكذلك إذاعة الشمس في باريس، وأظهرت إذاعة بي بي سي في لندن اهتماماً ملحوظاً لتعرض إذاعتنا للقصف، وقال الزملاء هناك إنهم أصيبوا بالدهشة لإقدام إسرائيل على مهاجمة مؤسسة إعلامية تؤدي واجباً

وطنياً ومهنياً!! وضحكوا كثيراً عندما قلنا لهم إننا عرضنا على باراك من (باب التهكم) إدارة الأخبار والبرامج في صوت فلسطين..! وعلّقوا ساخرين على هذه المناكفة: تستحقون القصف!!..

وليلة القصف على صوت فلسطين وما تبعها من ليال ممتعة في »أجيال«، وحتى بعد عودتنا إلى العرين في استوديوهات الإذاعة بعد يومين، كانت متنفساً للضحك والحوارات الساخرة والتندر واستحضار الحكايات عن أيام زمان، حين كان الإنجليز يحكمون بالنفي على أصحاب صحف وكتاب وسياسيين، ويتهمون بالتحريض لمجرد انتقادهم أفعال الانتداب، واستذكرنا معاً كيف كان إرسال إذاعتنا «المقصوفة» يبث برامج إذاعة الشرق الأدنى، عام واحد وأربعين، وبعد الاحتلال الإسرائيلي عام سبعة وستين، صار يبث برامج إذاعة إسرائيل بالعربية، وكانوا يقولون حينها: هنا إذاعة إسرائيل من رام الله، واليوم قبل القصف، وأثناء القصف وبعده، فإننا نقول: هنا صوت فلسطين..

بين الانتفاضة الأولى في كانون أول عام سبعة وثمانين، وانتفاضة أيلول عام ألفين، ثلاثة عشر عاماً (أربعة آلاف وسبعمائة وخمسة وأربعون يوماً، ومليون ومئة وثمانية وثلاثون ألفا وثمانون ساعة، وثمانية وستون مليوناً وثلاثمائة وثمانية وعشرون ألف دقيقة)، هذه الأعوام والأيام والساعات والدقائق شهدت أحداثاً وتطورات كثيرة، بعضها متوقع، وما لم يكن بالحسبان وما كان حصاداً للتضحيات والإرادة، أو نتيجة طبيعية لتحولات النظام العالمي الجديد.

وبحلول انتفاضة الاستقلال في أيلول من عام 2000، كان من كتبت لهم الحياة من أطفال الانتفاضة الأولى قد كبروا وصاروا رجالا، تزوجوا وأنجبوا أطفالاً، وفي غفلة مقصودة منهم، تسلل أطفالهم إلى مواقع المواجهات ورجموا جنود الاحتلال بالحجارة، وسقطوا شهداء وجرحى.

منذ أكثر من ربع قرن، كنت واحداً من الذين ساقتهم أقدارهم إلى سوق الإعلام، فعملت فيها مندوباً لإذاعتي الشرق ومونت كارلو، ومحرراً في صحف ومجلات فلسطينية وعربية، أراقب وأتابع وأكتب وأسجل وأذيع ما جرى في الانتفاضة الأولى، وكما يعرف يوسف، كنت أراسل إذاعات المنظمة منذ زمن الانتفاضة الأولى عبر قبرص.

وسافرت يومياً بسيارتي المتواضعة إلى كل مكان في الضفة الغربية وقطاع غزة، ولم أترك قرية أو مخيما، أو خربة منسية إلا وزرتها والتقيت أهلها وكتبت عنها.

كان معظم الناس إبّان الانتفاضة الأولى يستمعون إلى إذاعة مونت كارلو التي عملت معها أحد عشر عاماً، من أول الانتفاضة إلى آخرها، وفي الليل، كنّا نهلك في البحث عن إذاعة صوت فلسطين من بغداد لسماع البرامج التعبوية، ورسائل الشيفرة التي كان يبثها إلى الفدائيين، وأحياناً، كان الناس يتابعون إذاعة إسرائيل المليئة بالكذب المقصود لمعرفة التوجه الإسرائيلي في ذلك اليوم، أو إذاعة لندن ذات الإيقاع العجائزي المليء بالتحليلات الصائبة أحياناً والخاطئة في أحيان أخرى، وبعض الإذاعات العربية التي لا تُغني ولا تُسمن، في وقت اشتعلت فيه الأرض بانتفاضة عارمة لم تنطفئ لسبعة أعوام متصلة.

وفي كل مكان كنت أذهب إليه، كان الناس يسألون: لماذا لا تكون لنا إذاعة هنا في الوطن؟ وكنت أقول بثقة لمن يسأل: إن شاء الله!

وبعد سبع سنوات من هذا السؤال الُملحّ، شاء الله أن تكون لنا إذاعة وُلدت في ليل قائظ من شهر تموز

اللاهب عام أربعة وتسعين في أريحا، وسميناها، بطبيعة الحال، صوت فلسطين، ولم نصدّق أنفسنا، بكينا فرحاً، وهتفنا انتصاراً، وصرنا نقول كل يوم بعد أن نُصبِّح على السامعين: هنا صوت فلسطين، ونرددها عشرات المرات.

بعد شهرين، التحق يوسف القزاز بالإذاعة في أريحا آتياً من عمّان، وفور وصوله، سألني: كم عدد الاستوديوهات؟ لم يكن يعلم أن لدينا استوديو واحدا فقط، فيه اختنق يوسف المحمود ودانييلاّ وشيرين وإبراهيم وأنا والآخرون.. ضحكنا كثيراً، وبعد ساعة، توجهنا سوياً إلى القدس، عن طريق العيزرية تحاشياً للحواجز الإسرائيلية، مشينا في أسواق البلدة القديمة، ظل يوسف صامتاً مضطرباً، وصار يلتهم الشاورما والشوارع والمباني والناس، وفي شارع صلاح الدين، أشار إلى مبنى غير مكتمل وقال: ألا ترى أنه مناسب لصوت فلسطين؟ ضحكنا وتابعنا السير باتجاه باب العامود..!! سيكون يا يوسف.. سيكون!

---

* مدير عام صوت فلسطين.

شوارع الإرسال

يوسف القزّاز*

الجمعة – منتصف نهار فلسطين.
على أديم هذه البلاد – فلسطين، دلّت مأثورات كنعانية، أن اليبوسيين – الكنعانيين ومن اشتق منهم، وقبل خمسة آلاف عام من الآن فينيقيين – أوغاريتين، سكان الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، انتظروا في حياتهم، دائماً، قدوم أيلول – سبتمبر، فهو، في معاني المناخ والزراعة –ظاهرة الحضارة الأولى– مثّل لهم، توازن الطبيعة، الاعتدال الحراري، بقايا صيف، وداع للعنب، استقبال لموسم الزيتون، أول الخريف المائج بالحركة، شمس ورياح، ديمومة للحياة المتجددة، في المكان وفي الزمان.
لهذا الاحتفاء القديم بأيلول، اقتران بمواسم أخرى تسبقه أو تليه، في التشكيل الإنساني لشعب هذه الأرض– شعب فلسطين المنحدر من سلالات اليبوسيين الكنعانيين، أيام الجمعة، لها إيقاعها الديني، كما لأيام الأحد في الإيمان الإسلامي والمسيحي الفلسطيني.
يوم الجمعة الخريفية – 28 أيلول ألفين، منتصف نهار فلسطين، أطلت الانتفاضة الفلسطينية من عنفوانها وسط ساحة المسجد الأقصى المبارك، أولى القبلتين.. ثاني المسجدين.. ثالث الحرمين الشريفين، في قلب القدس – عاصمة فلسطين.
كل شيء كان ينذر بالانفجار، أشعل الإرهابي شارون بكل ماضيه الإجرامي المقترن بمجازر صبرا وشاتيلا فتيل الحريق بتواطؤ مكشوف مع حكومة إسرائيل برئاسة إيهود باراك.
استدعت الانتفاضة كل معانيها في المعنى الوطني المتوحد، واستدعت أسماءها: الحرية – الاستقلال – الهبّة – الثورة – الإبداع في حركة النضال الفلسطيني، بالمقاومة، بالفكر، بالنشيد، بفضاء لا متناهٍ من عمل متواصل لإنجاز الحلم الفلسطيني – الدولة الفلسطينية – والقدس عاصمتها.

في الجمعة الخريفية الأولى، خمسة شهداء وعشرات الجرحى على أيدي الجيش الإسرائيلي المحتل، النار استهدفت المصلّين الفلسطينيين على غرار ما حدث في الخليل وفي الأقصى في سنوات سابقة، وفي مسجد حوسان لاحقاً.

المجازر الإسرائيلية سياسة رسمية لجيش له دولة اسمها إسرائيل، منذ دير ياسين، وبلد الشيخ، والطنطورا، وكفر قاسم، وخانيونس، وقبيبة والسموع ونحالين والدوايمة، وحتى المجازر الأخرى.

في معاني يوم الجمعة، يذكر المؤرخ الأمريكي – اللبناني الأصل فيليت حتّى: «أن يوم الجمعة مقدس لدى المسلمين، وفيه أداء إيماني خاص ذو مغزى يتصل بخصوصية دينية يجلها الناس..».

المشهد الإيماني أعلن عن ذاته في يوم الجمعة، دفاع عن المقدسات «المسجد الأقصى والصخرة»، ودفاع عن الحياة، وعن المشروع الوطني الفلسطيني «الدولة» في كل مدينة وقرية ومخيم، رفض للاحتلال ومقاومة لكل أشكاله: التهويد، الاستيطان، الحصار بأعلام فلسطين- بالمسيرات- بدماء الشهداء- بالجرحى، لمع برق أفق جديد في الحياة الفلسطينية.

فلسطين موحدة بحسّ رسالي ورسولي.. من هنا مرّ الأنبياء «رحلة الإسراء والمعراج»، وهنا ولد المسيح، في وطن الميلاد -القدس- ليست يهودية، كما اعترفت دائرة الآثار الإسرائيلية يوم 23/7/1998 بلسان روني رايخ وراني شوكرون في صحيفة معاريف.

قال هذان الإسرائيليان بما يشبه الزلزال: «القدس كنعانية، مدينة محصنة، دخلها الإسرائيليون في حقبة داود كمحتلين».

عالم إسرائيلي آخر هو «إسرائيل فلنكشتاين» من جامعة تل أبيب يوم 12/11/ 2000 في مجلة «جيروزاليم ديبورت» قال: «لا صلة لليهود عبر التاريخ بالقدس، والهيكل ليس موجوداً».

البروفيسور زيف هيرتنروج في العام 2000م، ومن الجامعة ذاتها قال: «لم تكن لداود مملكة عاصمتها القدس، أسطورة أن القدس يهودية لا أساس لها من الحقيقة».

القدس لا يمكن لأي فلسطيني أو عربي أو مسلم أو مسيحي التخلي عنها. هذه الحقيقة الساطعة عمقت تنامي الروح الاستشهادية عند الشباب الفلسطيني في كل أرض فلسطين التاريخية، القدس رأس القيامة الوطنية الفلسطينية، الأوروبيون رفضوا تهويدها واحتلالها واستيطانها، والشرعية الدولية اعتبرتها أرضاً فلسطينية محتلة، الصورة الإسرائيلية ذاتها تجاه فلسطين منذ وعد بلفور ونكبة عام 1948 وعام 1967 وبعد أوسلو وحتى الآن، تحاول تغييب الذات الفلسطينية. صورة إسرائيل الخوذة/ الدبابة/ الطائرة/ جرافة الاستيطان/ قتل الأطفال/ حصار القدس/ عدم تطبيق ما اتفقت عليه حكومات إسرائيل مع منظمة التحرير وتعبيرها الوطني في فلسطين -السلطة الوطنية الفلسطينية- تدمير الثقافة الفلسطينية.

في ذروة الهجوم الإسرائيلي على المصلّين في باحة الأقصى، أسرعت إلى صوت فلسطين، وفي الطريق، استذكرت انطلاقة إذاعتنا في أريحا عام 1994 والأمل أن تعود إلى القدس مقرّها الأول منذ عام 1936 كثاني إذاعة عربية بعد إذاعة القاهرة، كان اسمها «دار الإذاعة الفلسطينية»، كان المرحوم الشاعر إبراهيم طوقان أحد أعمدتها، وذهب الخيال إلى إذاعات صوت فلسطين في المنافي، في القاهرة عام 66/68، وفي

بيروت عام 1975، والجزائر وصنعاء وعدن وبغداد ودرعا بين أعوام 72–1993.
وصلت الإذاعة، عقدنا اجتماعاً مهماً للغاية نحن الثلاثة: باسم أبو سمية مدير عام صوت فلسطين، يوسف القزاز مدير عام البرامج والتنسيق، محمود أبو الهيجاء مدير الأخبار.
حددنا خطنا السياسي وخطابنا الإعلامي، ونقل الأحداث تباعاً، تحدثت مع الشاعر المتوكل طه والكاتب حافظ البرغوثي، وشَكّلنا مجلسَ إعلام للانتفاضة. وفي مواكبة آراء إعلاميين آخرين.. رضوان أبو عياش رئيس هيئة الإذاعة والتلفزيون– كاتب، وخالد مسمار الإعلامي والإذاعي– كاتب، والكاتب د. مرعي عبد الرحمن، وأبو فارس المحلل السياسي، والكاتب عثمان أبو غربية المفوض السياسي العام، وصخر حبش عضو اللجنة المركزية– الكاتب والشاعر.
كان اتصالنا مباشرة مع الرئاسة الفلسطينية، الطيب عبد الرحيم ونبيل أبو ردينة.
وواكبنا على المستوى الأمني الحاج إسماعيل، وتوفيق الطيراوي، ومحمد دحلان والمحافظ مصطفى عيسى أبو فراس، محافظ رام الله والبيرة، وكانت تحليلات سامي الرملاوي المسائية مليئة بالمعلومات والوقائع دون أن يشير إلى مصادرها، وقد استخدمنا معظمها في تحليلاتنا دون الإشارة إلى أصحابها.
في اليوم التالي، أوعزت إلى الزملاء والزميلات في البرامج الأجنبية ببث نشرات إخبارية قصيرة تتضمن الموقف السياسي والميداني الفلسطيني، وبلغات إنجليزية وفرنسية وعبرية.
وقام باسم بكتابة توضيحات لجنود الاحتلال ولأسرهم: لماذا تقتلون الأطفال، ما هي أهدافكم، فكّر أولاً، أنتم تحتلون أرضنا..؟ ترجمت هذه العبارات وغيرها إلى اللغة العبرية وتناولها بالتعليق الإعلام الإسرائيلي كتحريض من صوت فلسطين.
كتبنا –باسم ويوسف ومحمود– مادة إعلامية عن القدس وسجلناها بأصواتنا المتقاربة بفواصل موسيقية لـ«بيتهوفن»، وهي مادة تتحدث عن الأبعاد السياسية والسكانية والتاريخية والجغرافية والثقافية والإنسانية عن القدس. اتهمتنا إسرائيل بالتحريض وقالت: «إن يوسف القزاز المعلق السياسي لصوت فلسطين يرتب العبارات ويكتب بتحريض سافر ضد إسرائيل».
اخترنا الأناشيد والأغاني المناسبة لزمن الانتفاضة، بعضها قديم والآخر جديد، كان الزملاء والزميلات يلحّون عليّ يومياً أن نبث أغاني الثورة الفلسطينية كما كان يبثها صوت فلسطين في المنفى.
تداخل فيّ زمن الثورة والانتفاضة.. وتداخل فيّ زمن بيروت ورام الله. بيروت أحببتها كمعظم الفلسطينيين، ورام الله أحببتها أكثر لأسباب كثيرة، هي جزء من وطني فلسطين.. وطن الثقافة الكونية بحكم تكوينه على تماس مع البدايات..

– في البدء كانت الكلمة – الإنجيل.
– وطن الميلاد.. ميلاد المسيح.
– وطن الإسراء والمعراج – رحلة النبي محمد عليه السلام للسماء.
– وطن الزراعة الأولى، والمعنى بالإنجليزية متقارب بين الزراعة والثقافة.
– وطن المقدسات الإسلامية والمسيحية.

– أولى القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين الشريفين.
– وطن الزيتون.
في بيروت ورام الله.. المشهد واحد.
شارون أمر بقصف مرسلات صوت فلسطين في صيدا في أول غارات جوية إسرائيلية عام 1982 في حزيران.
وباراك أمر بقصف مرسلات صوت فلسطين في رام الله، في الزمانين وفي المكانين، رأيت صديقيّ نبيل عمرو وباسم أبو سمية يحاولان إخفاء دموعهما، الأول في بيروت والثاني في رام الله.
قال نبيل وسط الحريق في الشارع الأخير في بيروت، بكل ثمن، سيتواصل صوت فلسطين، وحدث هذا.
وفي رام الله، قال باسم: بكل ثمن، سيتواصل صوت فلسطين، وحدث هذا، قصف الاحتلال إذاعتنا يوم 12/10/2000، ولكننا لن نصمت.
ذهبنا ثلاثتنا –باسم ويوسف ومحمود– ومعنا المهندس فكري حمودة مدير الهندسية الإذاعية، وكان القرار بناء محطة الإرسال من جديد وانطلاق صوت فلسطين عبر أمواج المحطات الإذاعية الخاصة.
ارتقى الزملاء العاملون في المحطات الخاصة، إلى مستوى الحدث الوطني، وخاصة إذاعات: أجيال، وأمواج، وبيت لحم، والخليل، وطريق المحبة– نابلس، نقلوا صوت فلسطين عبر أثير إذاعاتهم. لن ننسى «تلفزيون وطن»، كانت له الريادة في نقل أول صورة فلسطينية عن مذبحة إسرائيل في ساحة الأقصى.. كانت السيدة لواحظ الجعبري من وراء كاميرا «الوطن».. كل الوطن ينقل صورة فلسطين للوطن وللعالم، وصورة الاحتلال للوطن وللعالم، لواحظ، السيدة المقدسية، زرقاء اليمامة الفلسطينية، أينما كانت، أرسلت أول صورة للانتفاضة، من أول مدائننا وعاصمتنا القدس، لعينيك الفلسطينيتين الجميلتين دائماً، ألف تحية ولكل طاقم «وطن».
اتصالات لا حصر لها، وفاكسات وزيارات من أبناء شعبنا الفلسطيني تهنئ بسلامتنا نحن معكم الله يحميكم.. صوت فلسطين.. صوت الشعب.. صوت الحرية.. صوت الثورة.. صوت الانتفاضة.. صوت الإسراء والمعراج.. صوت الأقصى.. صوت الميلاد.. صوت الدولة الفلسطينية.
جاءني صوت سما من أعالي جبل النار.. يوسف الله معكم.. كل نساء جبل النار تحيي صوت فلسطين.. معنوياتنا عالية.. النصر لنا.. نسمعكم.
أما صوت «ذكرى» من أعالي جنين، فقال: صوت فلسطين لن يغيب.. اهتموا بأنفسكم.
ومن مدينة القسام، جلجل صوت «يوسف المحمود» الشاعر والكاتب.. صوت فلسطين سيبقى الأعلى.. إنهم يقصفون صوتي.. أنا ابن الإذاعة.
ومن القدس، كان صوت هيفاء المقدسية من مكتبة الخالدي ممتلئاً بالاحترام قالت: صوت فلسطين هو صوت القدس.. توكلوا على الله.. إلى الأمام. من أقدم مدينة في الكون.. أريحا.. أبلغتنا نادية أن صوت القدس هو نحن كل الفلسطينيين، لن ينجح الاحتلال في تغييب صوتنا.
من خليل الرحمن، قالت نوال.. كل بيت هو صوت فلسطين.
من رام الله، المحامية حنان البكري قالت، وفي رنين صوتها القوي: حمداً لله على سلامتكم.. تدبروا أمر

الإذاعة بسرعة.. الله معكم.
من طولكرم، بكت ليلى على سلامتنا بكاء الفرح. ومن قلقيلية، قالت سناء كما قالت سلمى من بيت جالا، وكما قالت الأكاديمية ماري مسلم.. سيبقى صوت فلسطين الأقوى والأصدقاء معكم دائماً حتى ينطلق من القدس. ومن غزة، قالت زميلتنا نفوذ.. إلى الأمام.. سلامتكم هي الأهم.
في الليلة ذاتها، عانقتني ابنتي حنين وقالت: اتصلت شقيقتي من اليينوي.. نسرين تريد أن تتحدث معها فوراً وإلا سأزعل أنا، وتحدثت معها «بابا.. تحياتي لك ولصديقيك باسم ومحمود وللجميع.. احموا أنفسكم. سامية.. زوجتي، وتميم.. ابني الوحيد هدجا بصوت واحد.. خليك معنا الله يحميك».
وفاء عمرو، الكاتبة الصحافية تبحث عنا نحن الثلاثة، ولا أعرف حدود دقتها اللامتناهية في ربط المعلومات والأحداث، نأخذ برأيها الموضوعي والصادق قالت: احذروا وتهانينا بالسلامة.. الانتفاضة في كل مكان.
بخطابنا الإعلامي والسياسي، قلت يومها للعالم مساءً: ندافع عن حياتنا وأطفالنا ومشروعنا الوطني.. لن يخيفنا دمار الاحتلال وسنصمد وما زلنا صامدين.. قال عزام الأحمد، النائب والوزير: شعبنا سينتصر.
أثناء ذلك، هاتفتني والدتي من عاصمة عربية صوتها مفعم بالحنان والبكاء: «الله معكم.. إنهم مسعورون.. الله يحمي الأقصى وأولادك». في مناكفات مقصودة، تساءل أحدهم: أين دور المرأة الفلسطينية في الانتفاضة.. المرأة أم الشهداء والجرحى والأسرى، في التظاهرات والمسيرات، صانعة الأعلام صانعة الثقافة الوطنية، العاملة، الباحثة، الطبيبة، المهندسة، الشاعرة، الفنانة.
تحدثت سهير عزوني وفريال عبد الرحمن وفايزة أبو الهيجاء.. قلن: كلنا ذاهبات في الانتفاضة نتصدى لاتهامات بعض الغائبات عن مشهد الاحتلال الإجرامي، نوزّع الإعانات الطبية، ونصدر البيانات ونشارك بفاعلية.
ليانا بدر زودتنا بأغانٍ وطنية وصنعت فيلماً عن الزيتون الفلسطيني، والفنانة سامية الفادي غنت لفلسطين، وفي وقت لمسنا فيه غياب الأغاني الوطنية الجديدة. السواد الأعظم من شعب فلسطين انخرط في الانتفاضة، علّق باسم ذات اجتماع مسائي لمجلس إعلام الانتفاضة..
يوسف ومحمود والمتوكل وحافظ: لدينا مراسلات من أخواتنا في كل مكان «يتبرعن مشكورات بإرسال معلومات أولاً بأول وخاصة عن جرائم المستوطنين ضد الإنسان والزيتون».
– الزيتون في بلادنا شجر مقدس، له قيمة عالية، كأن الزيتونة فرد من أفراد العائلة.
– من حوارة، كان يأتي صوت المدرسة نادية: يوسف.. قطعوا أشجارنا، خربوا زيتوننا.. والدي حزين..
عندما قال ياسر عرفات ذات صباح: «إن الانتفاضة ستتواصل حتى نرفع أعلام الدولة الفلسطينية فوق القدس، استخدمت مصطلحاً جديداً في اسم الانتفاضة وفي البرنامج السياسي والثقافي «صباح جديد» حيث أكتبه، صرت أستخدم تعبير «انتفاضة الاستقلال».. شهداء في كل مكان وجرحى وأسرى.
هاتفت مرات المستشار نبيل أبو ردينة، وأحياناً أمين عام الرئاسة الطيب عبد الرحيم، وأطلّ علينا مرات أمين عام مجلس الوزراء أحمد عبد الرحمن، سألت نبيل عن السيد الرئيس، استذكرت اتصالاً من أبو

عمار يوم 1982/6/3، بداية الغزو الإسرائيلي للبنان لإبادة منظمة التحرير الفلسطينية، قال نبيل: لن نقبل شروط الإسرائيليين والرئيس يهديكم السلام.. نتابعكم».
في ليلة قصف إسرائيلي وحشي على رام الله، تحدثت مع الطيب عبد الرحيم بحضور د. رمزي خوري ومازن عز الدين وخليل الزبن.
قال الطيب: يحاولون هدم قلعتنا من داخلنا، قلت له: «ندرك ذلك والعملاء لن يهزوا قلاعنا.. تحياتنا للسيد الرئيس أبو عمار.. على اتصال دائم».. وهكذا كنا.
كان على صوت فلسطين أن يتصدى لكل الظواهر السلبية في زمن الانتفاضة كإطلاق الرصاص من بين البيوت في أماسي الانتفاضة، بعد مبادرتنا تلك، أصدرت القيادة الفلسطينية قراراً يمنع هذه الظاهرة. وتصدّينا لأفعل حرب نفسية، وهي الشائعة الإسرائيلية، نرد على شائعاتهم بحقائقنا.. كم يكذب الإسرائيليون في إعلامهم.. الفارق هائل بين إمكاناتهم وإمكانياتنا، ولكن إضاءة شمعة، خير من أن نلعن الظلام.
في ليلة قصف غزة برّاً وبحراً وجوّاً، ذهب باسم إلى الاستوديو، قال في كلمة كتبها: «أين أنتم يا أشقاءنا وأصدقاءنا مما يجري ضد شعبنا».. اشتعلت موجات صوت فلسطين.. نراقب المشهد الاحتلالي الإجرامي.. ونخاطب شعبنا في صوت فلسطين قلنا: إن المستوطنات هي دول يهودية وسط مدائننا وريفنا، أوكار للقتلة المستوطنين، لكن للمستوطنين أهدافا أخرى منها، فرض التصحّر على أرضنا، يحاربون الزيتون والأرض، ولكنهم سيرحلون مثلما رحل المستوطنون الفرنسيون من كل ذرة تراب في الجزائر.
في حرب المستوطنين ضد الزيتون، حرب ضد كل ما هو مقدس ومتحضر.. الزيتون ذكره الله في القرآن الكريم وأقسم به، والزيتون عماد الاقتصاد الزراعي الفلسطيني، والزيتون دواء لعلل كثيرة متصلة بحياة الإنسان، وكل ما يتصل بحياة الإنسان وأمنه المكاني والزماني والغذائي.. يتصل بالحضارة، فكيف يمكن للمستوطنين الوصول إلى الحضارة وهم يعادون الإنسان بالقتل والزيتون بالقتل، والأرض بتحويلها إلى بؤر للجريمة والعدوان بحماية إسرائيل، الجيش الذي له دولة وليست الدولة ذات الجيش.
– الانتفاضة في شهرها الثالث..
– تفتح كل يوم آفاقاً للمعاني.. شهداء وجرحى.. والأسرى لم يتوقفوا عن قرع أجراس الحرية.. حياة جديدة تتشكّل في لحظاتها.. وشروط جديدة للمفاوضات يتحدثون عنها.. وفضائيات تتحدث عما يجري على الأرض.
– في يوميات «صوت فلسطين» في زمن الحجر، اقترحنا هيئة لملاحقة ضمائر الإنجليز المسؤولين عن كارثة فلسطين منذ وعد بلفور بعد احتلالهم لبلادنا عام 1917، واقترحنا إنشاء صندوق خاص لدعم الفلاّحين المصابين بخسائر زيتونهم. في آماسي الدوريات الإعلامية، عندما تعرض بيت الزميل باسم لقصف الـ500 وكاد يغادرنا، وعندما تعرضت حارتنا وبيتنا في البيرة وكدت أنا أودع.
– لاحظنا أن النزعة الاستشهادية عند الشباب تعدت من هم في أعمار 14 و15 و16، شباب في العشرينيات والثلاثينيات يتمنون الشهادة.. الشهادة حية لا تموت.. كوجه الله.

قال محمود (ثالثة الأثافي) كما يمازحه باسم أو (شقيقنا الأصغر) كما أسميه، وهو شاعر، إنني أوافقكم..
قال باسم فعلاً، نحن شعب الجبارين..
وقلت.. شعب له قوة غامضة.. هي قوة الروح.. قوى الإرادة.
لم تمرّ ليلة.. أو يوم بلا شهداء أو جرحى أو قتل زيتونة هنا أو هناك..
محمد الدرة وسارة.. طفل وطفلة نقلا للانتفاضة والإعلام الفلسطيني أكثر من أية فضائية في الكون..
هذا جانب من صورة إسرائيل.. ذبح الأطفال.. إنه باراك العائد إلى خوذة الجنرال وإلى صدفية الليكود وربما مواليدات.. يفاخر بأنه ضد السلام.. ضد الدولة الفلسطينية.. ضد الإسلام.. ضد المسيحية.. ويوقّع على الورق فحسب.. ولا يعطي للفلسطينيين أرضاً كما قال: سيكون أفشل رئيس حكومة إسرائيلية.
والفلسطينيون لن ينسوا.. ولن يغفروا..
قال عن صوت فلسطين: المصدر الرئيس للتحريض..
وقال بن عامي: صوت فلسطين مدرسة في التحريض..
وقال نتنياهو: صوت فلسطين يحرِّض حتى بالأغاني..
وذات يوم، قال كيسنجر: إن قفل صوت فلسطين من العواصم العربية سيفتح المجال أمام تلك العواصم لتحسين علاقتها مع أمريكا.
ومرَّة، قال إيغال ألوني الإسرائيلي المعروف: إن إذاعات صوت فلسطين توجه برامج للفلسطينيين في السامرة ويهودا تحضهم على قتال إسرائيل.
وهدد الإرهابي العجوز شامير مراراً بتدمير صوت فلسطين، وشارون وباراك اتحدا ضمن وحدتهم الباطنية ضد كل فلسطين وشعبها بقصف صوت فلسطين في لبنان وفلسطين. وكان لهما ما أرادا، لكن صوت فلسطين، كما قال الراحل الكبير الكاتب إميل حبيبي، سيبقى في كل بيت فلسطيني، من أعالي الجليل وحتى أم الرشراش (إيلات)، ومن النهر إلى البحر وهكذا هو.
في تشرين أول / أكتوبر 1994، هاتف ياسر عرفات صوت فلسطين في أريحا، قال مباشرة على الهواء: «أحييكم واحداً واحداً..»، الكلمات ذاتها قالها في صوت فلسطين في بيروت، عقب قصف محطة الإرسال في صيدا.
الانتفاضة تتقدم.. دقت أسماع العالم ودخلت كل بيت عربي.. وفرضت إيقاع الدولة الفلسطينية في بيانات دول أوروبا والعالم الإسلامي.. وحتى دول أمريكا اللاتينية.
من عالمها.. عوالم أخرى تتشكل الآن.. في أيام الانتفاضة الأم عام 1987 تشرين أول / ديسمبر، حملت خطاب فلسطين للكون كله.
الآن، وعلى جذع الانتفاضة الأم، في شهرها الثالث في تواصلها.. في فضائل رمضان وعلى أبواب العيد والميلاد وانطلاقة الثورة الفلسطينية.. انطلاقة فتح.. في تماس مع ماء السماء المطر.. شمولية الانتفاضة.. هي شمولية الحرية.. وتجسيد الاستقلال وترسيخ أبدية القدس عاصمة لدولة فلسطين الضمان الحقيقي للسلام العادل والشامل.
الانتفاضة من أجل السلام.. في أيامها.. صداقات جديدة.. وكتابات جديدة.. هوية الفرد هي هوية الجميع

الفلسطيني.. غياب عن الذات.. من أجل وطن اسمه فلسطين.. الذات الانتفاضية.. أبسط ذات تحتوي نموذجاً متكاملاً من الذوات كلها.. الانتفاضة نهر ضفتاه الإبداع في شتى المجالات والمقاومة بشتى أشكالها.. الانتفاضة لغة.. واللغة، كما قال مالارميه الفرنسي، حية لا تموت..
مدير عام البرامج والتنسيق في صوت فلسطين.

أيلول – سبتمبر 2000

---

* مدير عام البرامج في صوت فلسطين.

دموع النوافذ

يوسف المحمود*

دم المسجد

في بلادنا، يستطيع الإنسان قبل وقوع خير أو شرّ، قراءته من خلال إيقاع الحياة بشكل عام. (للناس مزاج جماعي).. وهناك دائماً إحساس جماعي يجعلك تؤمن به في كثير من الأحيان.. لكنك لا تستطيع أن تجزم بشكل نهائي، لأن كل شيء مهيأ للتغيير.. فبعد انتهاء الاتفاقات إلى الفراغ العجيب، صار كل شيء يشير إلى احتمالين لا ثالث لهما، إما إلى الانفجار وإما إلى السكوت الطويل.

والسكوت الطويل لم نعهده أبداً.. عهدنا الانتظار –حتى في أشدّ ضربات الهزيمة ألماً– لا بد من رفض بأي شكل، فما بالك بشعب كامل ينام في الليل كي يصحو على نهار الاستقلال في الصباح؟ كل ذلك يعني أن الدنيا كلها تقف على قصفة طرية في أعالي الشجرة..

– الإعلان عن غزو (المجرم شارون) للمسجد الأقصى هو الذي سيكسر القصفة ويحطم الشجرة.

كان العدو يبث الطمأنينة عبر إعلامه بأن الأمور ستتم دون أدنى مشكلة.. وأكثر من ذلك، وصل الأمر بأحد المسؤولين الصهاينة لأن يدعو عبر إذاعتهم إلى الاطمئنان التام إلى أن المجرم سيدخل الحرم الشريف ويخرج منه دون أن يتحرك مسلم في الأرض، وسيمرّ الأمر بسلام كما قال..

تذكرت بسرعة ما كتبه أحد صحفييهم عن اندلاع الانتفاضة الكبرى.. من أن جنرالات إسرائيل كانوا قبل الانتفاضة 1987 يتحلون بثقة عالية ويستريحون تماماً لفرط إيمانهم بأن الشعب العربي الفلسطيني انتهى وتبدد إلى الأبد.. ويدلل الصحفي على ذلك بمقابلته لأحد الجنرالات في أواخر عام 1987 قبل اندلاع الانتفاضة بأشهر، ولدى سؤاله عن إمكانية اندلاع (تمرّد) في الضفة وغزة.. يقول الصحفي اليهودي: غرق الجنرال في كرسيه من شدة الضحك، وقال، أيضاً: مَن (سيتمرد)؟! لقد أنهيناهم تماماً!!

بعد أشهر قليلة، انفجرت الانتفاضة..
يا للأيّام، كيف تتشابه!
ويا للزمن، كيف يعود بثياب مختلفة أحياناً!!
– الآن، انفجرت الدنيا انفجاراً هائلاً وألقت بثقة الجنرالات المجرمة تحت نعال الراكضين إلى بوّابات الحريّة الكبرى.
– إنها الانتفاضة الثانية كما يقال.
وأقول إنها ذات الانتفاضة منذ بداياتها عام 1987، لأن خيطاً رفيعاً ظل يمتد منذ بدايتها حتى يومنا هذا.. فالمصطلح والسلوك والخطاب الذي أبدعته تلك الانتفاضة لم يغب على الإطلاق.. وهذا يدلّ على عبقرية الفعل الانتفاضي العظيم وقوة الإبداع الثوري الذي ظلّ يلمع بين حين وآخر دون أن ينطفئ، وهذا ما أثبتته أيامنا التي نحيا.. مجرد نظرة بسيطة إلى الوراء، سندرك ذلك.

شارع الناصرة

تجددت الانتفاضة.. ها هي، دخانها، ركضها، نشيدها، ضجيجها، إنها هي تماماً.
كان كل ما يجري ينقل على هواء الفضائيات ووسائل الإعلام مباشرة.
في أوائل أيام تجدد الانتفاضة.. خرجت مدينة جنين كبقية أخواتها.. وكالعادة، تجوب المسيرة الهائلة شوارع المدينة وتتجه إلى شارع الناصرة.. هذا الشارع الممتد كالسهم إلى الجليل.
في ظهيرة ذلك اليوم، كنت أستطيع رؤية سواد جنود الاحتلال وآلياتهم من المنطقة القريبة من حاجز الأمن الوطني المقام على ذات الشارع الممتد كالسهم.
دويّ الرصاص الكثيف وأصوات الانفجارات التي لا تنقطع وأصوات آلاف الخلق هي التي تعبئ فضاء المنطقة السهلية.. حيث لا شجر ولا نباتات ولا سواتر، وكل الجموع تقف وجهاً لوجه أمام جنود العدو وآلياته وسواده..
سيدرك أي إنسان دون حساب أو طول تأمل أن الانتفاضة ستطول أيامها ولياليها.. ومثل ذلك يحدث في كل الوطن.
بالقرب من المشفى الميداني المقام جانب حاجز الأمن الوطني، حدثت جلبة قويّة على بعد أمتار من مكان وقوفنا.. وكان عدد من الشبان يصرخون من أجل إفساح المجال لسيارة إسعاف يختلط صفيرها بصراخهم بدويّ الطلقات المتتابع بالدويّ المسيطر على المنطقة – منطقة المواجهات.
توقفت سيارة الإسعاف.. قفز منها شابان وأنزلا ثالثاً، قالا إن إصابته في صدره، وعلى الفور، بدأ المسعفون بتمزيق قميصه..
كان شاباً طويلاً أبيض، والزرقة تكاد تفيض من عينيه، ناب الوحش الإسرائيلي ظاهر تماماً في صدره، وكنت أرى ذلك حيث يسيل خيط من الدم.
وضعوه مرة أخرى في سيارة الإسعاف التي طارت باتجاه المدينة، حيث صفيرها يبتعد ولكنه ظلّ يملأ المكان. الطبيب أعلن أن إصابة الشاب خطيرة جداً.. وكان يتحدث عبر جهاز اتصال ويعطي أوامره من

أجل تحويله إلى مشافي نابلس أو رام الله.
كأني أعرف هذا الشاب.. ربما رأيته من قبل.. أعرفه بالتأكيد، كأن المشهد برمته يتكرر.
في أوائل أشهر الانتفاضة، وتحديداً عام 88، أصيب صديق برصاصة في كتفه ونقلناه إلى مشفى الاتحاد بنابلس، وهناك أدخلوه غرفة العمليات فوراً ووقفنا ننتظر حيث كان الوطن يومها يغلي كالمرجل، وكانت مدينة نابلس تعيش أيام حرب حقيقية، خلال نصف ساعة تقريباً، أحضروا ثلاثة جرحى، الواحد تلو الآخر وانشغلوا بهم.
بعد ذلك بقليل، وصلت سيارة كادت تطير من واجهة المشفى وقفز من بداخلها صارخين.. لقد استشهد!! حملوه بين أيديهم.. كان قميصه مفتوحاً، وذات الناب، ناب الوحش الإسرائيلي في صدره، والدم يفور من جهة القلب ويخطّ الوجع على قامته.
كانت عيناه مفتوحتين زرقاوين تختلطان بزرقة سماء الله، وساحة المشفى تغص بالخلق..
حضر أطباء وممرضون وأدخلوه إلى الطوارئ ليخرج مستشهداً.. أذكر أن اسمه وائل..
كان الشاب المصاب في جنين يشبه هذا الشهيد.. كأنه هو تماماً.. يا إلهي، كأن الشهداء يعودون مرّة أخرى يقاتلون!!

قصف رام الله .. «هنا صوت فلسطين»
الانتفاضة تعلو وتشتدّ!
الحرب والعدوان الأمريكي – الصهيوني على شعبنا ينقلُ على هواء الفضائيات مباشرة، وهذا لم يحدث من قبل إلا في الحرب الأمريكية – الأوروبية على العراق.
تستطيع أينما كنت أن ترى المذبحة وهي تنفذ.
يا لقسوة هذا الطين!
ترى دمك ينزف، وترى لحمك يتفتت تحت وابل الرصاص على شاشة صغيرة أمامك وتستمع إلى الأخبار العاجلة المحملة بدمك ودم الأصدقاء..
إنه العدو.. عدو الحياة.
كنت أستمع إلى الإذاعة –صوت فلسطين– كان نشيدها أجمل، وكان صوتها يرنّ على صخرة هذه الأيام قوياً هائلاً..
الإذاعة – بيتي الجميل.
الإذاعة، حيث ناديت عن مآذنها طويلاً مع أصدقاء وزملاء طيبين: لعنة الله على الفجرة.
حملناها من أريحا إلى رام الله إلى كل الدنيا قلباً وطوينا عليه شغافه. وما زلنا نحملها عذاباً طيباً.. لذيذاً، وفي خاطرنا ألا تنزل إلا في القدس.. حيث مكانها والمناداة من هناك أحلى وأجمل وحيث الكلام خيرٌ وأبقى.

صوت فلسطين
كم أقمت الأغاني لها
ورفعتُ النشيد بها عالياً
عالياً
خوف أن تنحني أو تموت
كم كسرتُ بها ماسةَ الوقت
كي لا يحطّ عليها السكوتْ
يا إلهي وكم مرّة في الصباحِ
عزفتُ على نايها
للرعاة وللعاشقينْ
وكم مرّةً في المساء
نهرتُ العدو وأسقَطت
عن بابها العنكبوت

كنت أتحرّقُ للذهاب إلى الإذاعة فوراً والعودة إلى هذا المكان في أيام كهذه.
كنتُ أتحرّقُ لأن أرفعَ النشيد عالياً وأنهر العدو تماماً.. كما ينبغي.
الإذاعة، البيت والصوت أو مئذنة الوطن، إنها مئذنة الانتفاضة الآن.
وكان لزاماً عليّ أن أكون هناك!!
يا إلهي ماذا يفعلون الآن في الإذاعة؟
كنت قررت العودة فعلاً إلى الإذاعة، لأنها مكاني في مثل هذه الأيام على الأقل.
قبل ظهيرة اليوم التالي، وكنت لم أتصل مع أحد بعد، اتصل معي أحمد رفيق عوض، وكان يتحدث بارتباك شديد، حيث قال: رام الله على كف عفريت والمدينة كلها تركض في الشوارع.. هناك أنباء أن المجرمين المحتلين سيدخلون إليها وأنا مضطر لقطع المكالمة.
اتصل أصدقاء آخرون، وبدأت الأخبار تنقل عن مقتل إرهابيين إسرائيليين في رام الله وأن العدو أعلن أنه سيقصف مواقع فيها بالطائرات والصواريخ.

* * *

رام الله بعد الظهر على الهواء مباشرة.. وكذلك غزة، وسائل الإعلام العربية والأجنبية وكل الفضائيات سوى واحدة فضّلت في تلك الساعة الحديث عن مضار التدخين وفوائد السمسم.. كلّها مشغولة بتحليق (رامبو) في سماء رام الله وغزة.
طائرات الأباتشي التي لم تستعمل سوى مرّة واحدة خلال العدوان الأمريكي – الأوروبي على العراق تبدأ بقصف رام الله.. والبوارج الأمريكية تبدأ بقصف غزة وعلى الهواء مباشرة.
يستمر القصف على عدّة مواقع والكاميرا تتنقل وراء الطائرات.. رام الله تقصف إذن!!
طائرات الأباتشي الأمريكية (جيدة الصنع) تحرق الورد الذي تخلفه خطى العشاق..

رام الله..
رام الله.. البيوت التي تضاء بالبهجة..
ورام الله.. الشرفات التي تتوسل إليها الزهور والطرق التي يطيل تقبيلها الورد.
في نقل حيّ ومباشر للعبة «رامبو» الأمريكية الصهيونية يقول المذيع: إنها ضربة جويّة أخرى، وربما تكون قد استهدفت مبنى الإذاعة والتلفزيون..
يقفز قلبي أمامي.. وفعلاً، تعطل بث الإذاعة.. اتصلت فوراً.. كان الجواب: كل شيء بخير هنا، لكنهم قصفوا الإرسال..
كان صوت فلسطين.. يسكت بفعل طائرة أباتشي.. وينطلق من جديد بفعل عزيمة قويّة.. دائماً، هنا صوت فلسطين.

دموع النوافذ – صباح الثعابين
كان هذا الصباح يحمل نبأ استشهاد شقيقين توأمين من بلدة يعبد هما بلال وهلال أبو صلاح.
ما الذي يمكن أن يشعر به الإنسان، عند ضربه بسيف كهذا.. ما الذي سيشعر به الآدمي المبني من اللحم والدم عندما يهبط عليه جبل صخري كهذا.. شقيقان؟!
كيف طالهما الرصاص من بين المئات يا لحكمة الله!!
كان ذلك الصباح حاداً وقاسياً.. يثير رغبة بتمزيق العالم مثل ورقة وإلقائها بعيداً.. كان ذلك الصباح مسنناً وله طعم مرّ.
كنت أمشي في ذلك الصباح الحاد/ المسنن وكأنما أخبّ على ظهور وبطون ثعابين وسحالي..
لماذا هذا الإحساس الرهيب؟ ولماذا هذا الرعب.
إنه، حتماً، الجزع من الإجرام والموت وإسرائيل.
انطلقت الجنازة الكبرى من مدينة جنين باتجاه بلدة يعبد..
وعند مدخل البلدة قالوا: من هنا أطلق المجرمون النار وأصابوا الشقيقين.. كان الشبان يقفون على تلال الزيتون المحروسة بالسرو.. وكان القتلة يتربصون لهم في أسفل الشارع.
كانت يعبد في تلك الظهيرة تغصّ بخلق الله وكانوا يهتفون كأنما بحنجرة واحدة. وكان الجنون أن ترى شقيقين يخرجان من بيتهما محمولين على نعشين.. كان ذلك يشبه خروج الوطن كله على نعشين!!
كنا نمشي.. آلاف الأرجل تضرب الأرض وعشرات آلاف الأصابع تطعن الهواء.. وحنجرة واحدة تطلق النشيد.
الشوارع مليئة تماماً.. وشرفات البيوت والنوافذ أيضاً خلف كل نافذة تستطيع رؤية عيون تلمع بالدم.. وعلى طول الشوارع.. أينما وجدت النوافذ، كنت ترى الدموع تتساقط منها.
وهذا هو بكاء البيوت، وتلك هي دموع النوافذ.
نواصل المشي بآلاف الأرجل وحنجرة واحدة.. والحزن يكاد يشقق الطين الإلهي الكثير.

شقيقان! كيف طالهما الرصاص من بين المئات.. يا لحكمة الله.
كنّا نمشي..
حقد القلوب صار ينز على قبضات الأيدي.. صرت ترى الرجال وهم يتحسسونه تماماً..

المسافة بين جنين ونابلس

عادةً، المسافة بين مدينتي جنين ونابلس تستغرق نصف ساعة وعدة دقائق في سيارة الأجرة.
لم نكن نعلم في هذا اليوم من أيام الانتفاضة أننا سنصل نابلس في اليوم التالي.
في الصباح، سألنا السائق في مجمع السيارات في جنين عن الطريق إلى نابلس، فأجاب: السيارات التي سافرت قبلي لم تعد، يعني هناك طرق.
بدأنا رحلتنا.. وعندما وصلنا الحاجز الإسمنتي والساتر الترابي الرابض على مفترق عرابة على الشارع الرئيسي جنين – نابلس.. اضطر السائق لسلوك طريق ترابي عجيب من وسط السهل ذي التراب الأحمر. كنا نرى السيارات القادمة من وسط السهل كأنها مراكب تمخر عباب البحر وهي صاعدة نازلة.. وحينما وصلنا بعد مشقة إلى الإسفلت قاطعين المسافة السهلية، قال أحد الركاب وهو عجوز سبعيني (إن الله وحده كفيل بالانتقام من الظالمين).
واصلنا المسير حتى مفرق «جبع» حيث حاجز المكعبات الإسمنتية تربض على عرض الشارع من أوله إلى آخره سوى مكعب واحد يكفي لمرور سيارة.. مررنا وواصلنا السير حتى بلدة «سيلة الظهر» التي يمرّ الشارع الرئيسي منها.. وفجأة، جنود الاحتلال وسياراتهم العسكرية.. لا بد أنهم يطاردون طلاب المدرسة.. وفعلاً، شاهدنا الطلاب وعلى ظهورهم حقائبهم المدرسية يهيمون بين حقول الزيتون والمشمش، والجنود يركضون خلفهم ويطلقون النار، وآخرون يتمترسون خلف أسلحتهم وآلياتهم ويطلقون النار أيضاً.. اضطر السائق للانحدار إلى طريق يمرّ بداخل القرية ويتجاوز تلك المسافة، كانت السيارة أشبه بعربة سيئة تجرّها حيوانات بين الصخور.
قال السبعيني: لم أعش في حياتي نحساً مثل نحس هذا اليوم، فقال له السائق: نحن نعيش أسوأ من ذلك كل يوم يا حاج، لكن لو سلكنا طريق طوباس لكفانا الله شرّ كل هذا النحس.. تمتم السائق، وواصل سيره على الطريق الرئيسي جنين – نابلس، وبعد أن قطعنا مفرق «برقة» و«سبسطية» وصلنا إلى مفرق قرية «الناقورة»، حيث مستوطنة يطلقون عليها (شافي شومرون).. ومن خلف مجنزرة تربض على الطريق، ظهر أحد الجنود تبعه آخرون.. الجندي الأول حرّك إصبعه حركة دائرية وما أكمل تلك الحركة، حتى كانت السيارة التي تقلنا تستدير للعودة.
سأل العجوز السبعيني: إلى أين؟
أجابه السائق: ألم تر بعينيك يا حاج، لقد أعادونا وعلينا أن نفتش عن طريق آخر. قال السبعيني: بعد كل ذلك سنعود؟ وسأل هل هذه حياة أم حذاء؟
ضحكنا رغم مرارة هذا النهار.
قال السائق: عندما نصل إلى مفرق «جبع» سنتجه يمينا إلى طريق «صانور» حيث هناك طريق يؤدي

إلى «الفارعة» ومن ثم إلى «نابلس».. أي أننا سنقطع ضعف المسافة التي قطعناها تقريباً، وإذا وافقتم، أضاف السائق، فإن هذا يتطلب زيادة الأجرة.. لم يكن أمامنا إلا أن نوافق جميعاً.

في طريق عودتنا، وصلنا إلى مفرق بزاريا، وبعد عدة أمتار، حيث مستوطنة يطلقون عليها (حومش)، هناك، وجدنا أنفسنا أمام حاجز لقوات الاحتلال لم يكن مقاماً عندما مررنا في طريق ذهابنا.

على الحاجز ثلاث سيارات متوقفة ونحن في السيارة الرابعة، كانوا يقفون على الإسفلت، يتحدثون ويضحكون، وبين الحين والآخر كانوا يسمحون لسيارة واحدة بالمرور بعد مرار تفتيشها وتفتيش ركابها.

قطعنا الحاجز، وعند وصولنا مفرق «جبع»، حيث الطريق الذي تحدث عنه، انعطف السائق يميناً، وعند وصولنا إلى معسكر جيش الاحتلال المعروف (بمعسكر صانور)، خرج لنا العسكر وأشاروا لنا مرة أخرى بالعودة وهو ما فعله السائق.. فضرب السبعيني كفاً بكف، وقال: ألم أقل لكم إن هذه ليست حياة؟

ألم أقل لكم إن هذا النحس لم يواجهني طوال حياتي؟

أرجوكم نريد أن نعود إلى بيوتنا.

عدنا بالفعل إلى مدينة جنين وكان الوقت قد تجاوز الظهر بقليل.. تبدد ذلك اليوم، وعند ساعات المساء، صارت الأخبار كالعادة تأتي سريعة عاجلة عن شهداء وجرحى يسقطون وقصف مدفعي وصاروخي في عدة أماكن.. وكان ذلك المساء يعبر مثل أفعى سوداء له رائحة الحزن وطعم المرارة والتعب.

في صباح اليوم التالي، كانت الشمس تغمر مجمع السيارات في جنين.. علي أن أذهب إلى نابلس لإنجاز عمل ملح.. قال السائق: سنذهب عن طريق طوباس، وبعد فترة، كنت في نابلس، وكان ذلك من أعاجيب زماننا، وهو أن تسافر اليوم من جنين وتصل نابلس في صباح اليوم التالي.

أبطال البرامج التلفزيونية
والقصص الإخبارية

دمنا بطل ساعات بث الفضائيات.. وبطل القصص والبرامج والتقارير الإخبارية، دمنا يفور على الأرض وصوره تعبئ الفضاء وموجات الأثير ليُرى على الشاشات الصغيرة والكبيرة.

منذ أكثر من ثمانين يوماً والكلام بكلِّ لغات الأرض يخبّ في آبارك وبركك.

الرؤوس المفغورة، والأشلاء، والليل المقدود من الصواريخ والرصاص والمدافع، يطفو على سطوحكَ التي تسرجُ على امتدادها الطويل.. تحت أضواء الكاميرات المخصصة لصنع الأفلام، تلك التي يحذّر ضعافُ القلوب من مشاهدتها..

في ساعات النهار، يركض أيّ فلسطيني طويلاً أطول من النهار، متعثراً بين قسوة صخور ساعاته.. وإذا مدّ الله بعمره، سينجو حتماً من الرصاص والطائرات وكمائن المجرمين.. الخ.

وماذا بعد نهار له رائحة الدم والقسوة وإسرائيل؟ سيرى ولوغ كلب الاحتلال في صحن دمه عبر نشرة

أخبار.
ماذا تقول الأخبار؟
يكاد الخبر يكون صالحاً لكل يوم!!
– استشهاد ثمانية فلسطينيين هذا اليوم وإصابة أكثر من مئتين، بعد تشييع عشرة كانوا استشهدوا أمس. وجاء قبل قليل أن طفلاً انضم إلى قافلة شهداء اليوم ولم تعرف هويته.
ودائماً، يلي هذه الصياغة الدموية تقرير مصوّر عمّا لا يستطيع خيال أي مجرم محترف التوصل إليه، ابتداءً من اصطياد أطفال المدارس على أيدي مجرمي الاحتلال، مروراً بقصف البيوت بالدبابات والطائرات وكل أثقال الحرب.
وماذا تقول الأخبار أيضاً؟
– تحطيم رأس عجوز بقضبان الحديد في حقل زيتون يملكه على أيدي اليهود.. واستشهاد شاب ليلة زفافه وقصف متسوقين وحالمين وذاهبين إلى حقولهم.. حيث تم جمع أشلائهم بصعوبة. وستعرض أكوام لحمك أمامك.. هذا ما تقترفه أيدي اليهود بأحدث أسلحة أمريكا والغرب القاتل ضد حَمَلةِ الثّوار أو المحاريث.
إنهم يستشهدون أشقاء.. وأصدقاء ومحبين.. في اليوم الأول، يسقط الشهيد، وفي اليوم الثاني أو الثالث، يلحق به شقيقه أو ابن عمّه أو مجموعة من أصدقائه.. كل فلسطيني يعيش على هذه الأرض شهيد.
هل حقاً كلنا شهداء؟

* * *

قال شاعر: «في الرياحِ السيئةِ يعتمدُ القلبُ».
أينها القلوب؟
لا أحد يملك قلوباً سوانا، لأنها دائماً على راحاتنا.. يعود مذيع الأخبار لتذكير المشاهدين من الأطفال وضعاف القلوب بأن التقرير الذي سيبثه يحتوي على مشاهد فظيعة.
– يا إلهي.. فكيف بالأطفال الذي يشاهدون آباءهم قطع لحم في أكياس؟
وكيف بالآباء الذين ينتظرون أبناءهم الذين خرجوا ضاحكين.. فيعودون لهم دون رؤوس.
وشبّان يحملون شهداء فيكتشفون أنّهم أصدقاؤهم أو يهبّون لجمع أشلاء طيّرتها صواريخ فيكتشفون أن تلك الأشلاء لأشقائهم؟؟
لقد حدث هذا تماماً في مواقع كثيرة.. ومثل ذلك، ما حدث في مجزرة الجمعة الثانية من شهر رمضان الحالي في مدينة جنين.. عندما كان أفراد أحد مواقع الأمن الوطني قرب ضاحية صباح الخير على شارع الناصرة الممتد كالسّهم، يعدّون إفطارهم بهدوء يشبه هدوء ذاك اليوم الذي لم يستمر حينما بعثرته قذائف دبابة، ليتطاير لحم الشباب قطعة قطعة على رماد ذلك اليوم الهارب من أيام النكبة.
كان على هذا النبأ أن يدسّ كخنجر بين أضلاع كل سامع.. صارت المدينة تركض.. شوارعها والناس

والقرى والأشجار والوعر نحو الموقع.. خمسة شبان لم يعرف أحد حتى الآن من هم، كل واحد يركض ويعتقد أنه هو حتى يتذكر أنه يركض بين الناس.. يا لهذا الغروب المسنّن.. يا لهذا الوقت الذي قُدّ من حديد وبارود!!

لقد وقفت الدنيا عند تلك الساعة الرهيبة في ذاك الغروب المتدلي من فم الجريمة.

صار الناس يجمعون خمسة شبان، أصابع هنا وقطعة رأس هناك.. يد على حجر.. وكومة لحم على تراب..

كان الشاب علاء من بلدة برقين بين خلق الله يجمع الأشلاء.. ولم يكن يعلم أنه ربما يحمل بين يديه لحم شقيقه الملازم إلا حينما سمع من بين الجموع من قال إنّه كان في الموقع فلان وفلان.

فهل كان علاء من بلدة برقين يحمل يد شقيقه أم قطعة من رأسه في تلك اللحظة؟

– أين قلوب الناس؟

– أين قلوبنا؟ أليست على راحاتنا؟

جمع الناس أشلاء الشهداء الخمسة (كومة لحم واحدة)، ونقلت إلى المشفى.. وكانت أمام الأطباء والمرضين هناك مهمّة تجميع كل جثة على حدة..

---

* شاعر فلسطيني يقيم في جنين.